سورة الرحمن

55 مكية

تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبقاعي

تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي

▲ تفسير الآيات رقم [1- 10]

{الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآَنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4) الشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (6) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ
الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا
الْمِيزَانَ (9) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10)}

ولما ختم سبحانه القمر بعظيم الملك وبليغ القدرة، وكان الملك القادر لا يكمل ملكه إلا بالرحمة، وكانت رحمته لا تتم إلا بعمومها، قصر هذه السورة على تعداد نعمه على خلقه في الدارين، وذلك من آثار الملك، وفصل فيها ما أجمل في آخر القمر من مقر الأولياء والأعداء في الآخرة، وصدرها بالاسم الدال على عموم الرحمة براعة للاستهلال، وموازنة لما حصل بالملك والاقتدار من غاية التبرك والظهور والهيبة والرعب باسم هو مع أنه في غاية الغيب دال على أعظم الرجاء مفتتحاً لها بأعظم النعم وهو تعليم الذكر الذي هز ذوي الهمم العالية في القمر إلى الإقبال عليه بقوله {ولقد يسرنا القرآن

للذكر فهل من مدكر} لأنه لما كان للعظمة الدالة عليها نون {يسـرنا} التي هي عماد الملك نظران: نظر الكبرياء والجبروت يقتضي أن يتكلم بما يعجز خلقه من كل جهة في الفهم والحفظ والإتيان بمثله وكل معنى من معانيه، ونظر الإكرام والرحمة، وكانت رحمته سابقة لغضبه نظر بها لخلقه لا سيما هذه الأمة المرحومة فيســـر لها الذكر تحقيقاً للرحمة بعد أن أبقى من آثار الجبروت الإعجاز عن النظر، ومن الإعجاز من الفهم الحروف المقطعة أوائل الســور، ومنع المتعنت من أن يقول: إنه لا معاني لها بأن فهم بعض الأصفياء بعض أسرارها، فقال جواباً لمن كأنه قال: من هذا المليك المقتدر، فقيل: {الرحمان *} أي العام الرحمة، قال ابن برجان: وهو ظاهر اسمه الله، وباطن اسمه الرب، جعل هذه الأسماء الثلاثة في ظهورها مقام الذات يخبر بها عنه وحجاباً بينه وبين خلقه، يوصـل بها الخطاب منه إليهم، ثم أسـماؤه الظاهرة مبينة لهذه الأسماء الثلاثة- انتهى.

ومن مقتضـى اسـمه {الرحمن} انبثت جميع النعم، ولذا ذكر في هذه السـورة أمهات النعم في الدارين.

ولما كان لا شـــيء من الرحمة أبلغ ولا أدل على القدرة من إيصـــال بعض صـفات الخالق إلى المخلوق نوع إيصـال ليتخلقوا به بحسـب ما يمكنهم منه فيحصـلوا على الحياة الأبدية والسـعادة السـرمدية قال: {علم القرآن *} أي المرئي المشـهود بالكتابة والمتلو المسـموع الجامع لكل خير، الفارق بين كل لبس، وكان القياس يقتضـي أن لا يعلم المسموع أحد لأنه صفة من صفاته، وصـــفاته في العظم كذاته، وذاته غيب محض، لأن الخلق أحقر من أن

يحيطوا به علماً، «وأين الثريا من يد المتناول» فدل تعليمه القرآن على أنه يقدر أن يعلم ما أراد من أراد {وعلم آدم الاسماء كلها} [البقرة: 31] ولا يخفى ما في تقديمه على جميع النعم من المناسبة لأن أجل النعم نعمة الدين التي تتبعها نعمة الدنيا والآخرة، وهو أعلى مراتب، فهو سنام الكتب السماوية وعمادها ومصداقها والعبار عليها، وفائدتها الإيصال إلى مقعد الصدق المتقدم لأنه بين ما يرضي الله ليعمل به وما يسخطه ليجتنب.

وقال الإمام جعفر بن الزبير : من المعلوم أن الكتاب العزيز وإن كانت آية كلها معجزة باهرة وسورة في جليل النظم وبديع التأليف قاطعة بالخصوم قاهرة، فبعضها أوضح من بعض في تبين إعجازها، وتظاهر بلاغتها وإيجازها: ألا ترى إلى تسارع الأفهام إلى الحصول على بلاغة آيات وسور من أول وهلة دون كبير تأمل كقوله تعالى

{وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي} [هود: 44]

وقوله {فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين} [الحجر: 94]، الآيات، لا يتوقف في باهر إعجازها إلا من طبع الله على قلبه أو سد دونه باب الفهم بأنى له بر لوجه وقوعه، وسورة القمر من هذا النمط، ألا ترى اختصار القصص فيه مع حصول أطرافها وتوفية أغراضها، وما جرى مع كل قصة من الزجر والوعظ والتنبيه والإعذار، ولولا أني لم أقصد التعليق ما بنيته عليه من ترتيب السور لأوضحت ما أشرت إليه مما لم أسبق إليه، ولعل الله سبحانه ييسر ذلك فيما باليد من التفسير نفع الله به ويسر فيه، فلما انطوت هذه السورة على ما ذكرنا وبان فيها عظيم الرحمة في تكرر القصص وشفع

العظات، وظهرت حجة الله على الخلق، وكان ذلك من أعظم ألطافه تعالى لمن يســـره لتدبر القرآن ووفقه لفهمه واعتباره، أردف ذلك ســـبحانه بالتنبيه على هذه النعمة فقال تبارك وتعالى {الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان} وخص من أسمائه الحسنى هذا الاسم إشعاراً برحمته بالكتاب وعظيم إحسانه به {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها} [إبراهيم: 34] ثم قد تمهد أن سورة القمر إعذار ومن أين للعباد بجميل هذا اللطف وعظيم هذا الحلم حتى يرادوا إلى بسـط الدلالات وإيضـاح البينات إن تعذر إليهم زيادة في البلاغ، فأنبأ تعالى أن هذا رحمة فقال {الرحمن علم القرآن} ثم إذا تأملت سورة القمر وجدت خطابها وإعذارها خاصـاً ببني آدم بل بمشـــركي العرب منهم فقط، فاتبعت سورة القمر بسورة الرحمن تنبيهاً للثقلين وإعذاراً إليهم وتقريراً للجنسين على ما أودع سبحانه في العالم من العجائب والبراهين الساطعة فتكرر فيها التقرير والتنبيه بقوله تعالى: {فبأيّ آلاء ربكما تكذبان} خطاباً للجنســـين وإعذاراً للثقلين فبان اتصالها بسورة القمر أشد البيان– انتهى.

ولما كان كأنه قيل: كيف علمه وهو صـــفة من صـــفاته ولمن علمه، قال مســـتأنفاً أو معللاً: {خلق الإنســـان *} أي قدره وأوجده على هذا الشـــكل المعروف والتركيب الموصوف منفصلاً عن جميع الجمادات وأصله منها ثم عن سائر الناميات ثم عن غيره من الحيوانات، وجعله أصنافاً، وفصل بين كل قوم بلسانهم عمن عداهم وخلقه لهم دليل على خلقه لكل شيء موجود

{إنا كل شيء خلقناه بقدر} [القمر: 49] والإنسان وإن كان اسم جنس لكن أحقهم بالإرادة بهذا أولهم وهو آدم عليه السلام، وإرادته- كما قال ابن عباس رضي الله عنهما- لا تمنع إرادة الجنس من حيث هو.

ولما كان كأنه قيل: فكان ماذا بخلقه، قال: {علمه البيان *} وهو القوة الناطقة، وهي الإدراك للأمور الكلية والجزئية والحكم الحاضر والغائب بقياسه على الحاضرة تارة بالتوسم وأخرى بالحساب ومرة بالعيافة والزجر وطوراً بالنظر في الآفاق وغير ذلك من الأمور مع التمييز بين الحسن والقبيح وغير ذلك ما أدعه سبحانه وتعالى له مع تعبيره عما أدركه بما هو غائب في ضميره وإفهامه للغير تارة بالقول وتارة بالفعل نطقاً وكتابة وإشارة وغيرها، فصار بذلك ذا قدرة على الكمال في نفسه والتكميل لغيره، فهذا تعليم البيان الذي مكن من تعليم القرآن، وهذا وإن كان سبحانه جبلنا عليه وخلقناه به قد صار عندنا مألوفاً ومشهوراً معروفاً، فهو عند غيرنا على غير ذلك مما أوضحه لنا سبحانه نعمة علينا بمحاجته لملائكته الكرام عن نبينا آدم عليه الصلاة والسلام وما أبدى لهم من علمه وبهرهم من رسم كل شيء بمعناه واسمه.

ولما بين سبحانه النعمة في تعليم القرآن الذي هو حياة الأرواح، وبين الطريق فيها، دل على البيان بذكر البينات التي يجمعها أمر ويفرقها آخر، ولها مدخل في حياة الأشباح، وعددها على سبيل الامتنان بياناً لأنها من أكبر النعم فقال في جواب من قال: ما بيانه؟ بادئاً بالكوكب الأعظم الذي هو أعظم نوراً وأكبر جرماً وأعم نفعاً ليكون خضوعه لقبول الآثار أدل على

خضــوع غيره بياناً لحكمته في تدبيره وقوته في تقديره: {الشــمس} وهي آية النهار {والقمر} وهو آية الليل اللذان كان بهما البيان الإبراهيمي، ولعله بدأ لهذه الأمة بغاية بيانه عليه الصــلاة والســلام تشــريفاً لها بالإشــارة إلى علو أفهامها {بحسبان *} أي جريهما، يجري كل منهما- مع اشتراكهما في أنهما كوكبان سماويان- بحساب عظيم جداً لا تكاد توصف جلالته في دقته وكثرة ســـعته وعظم ما يتفرع عليه من المنافع الدينية ولدنيوية، ومن عظم هذا الحســاب الذي أفادته صــيغة الفعلان أنه على نهج واحد لا يتعداه، تعلم به الأعوام والشــهور والأيام والســاعات والدقائق والفصــول في منازل معلومة، ويعرف موضـــــع كل منهما في الآفاق العلوية وما يحدث له وما يتأثر عنه في الكوائن السفلية بحيث أن به انتظام غالب الأمور السفلية إلى غير ذلك من الأمور التي خلقهما الله عليها ولها، وبين الإنســـــان وبين كل منهما من المســـــافات ما لا يعلمه على التحرير إلا العليم الخبير، وهذا على تطاول الأيام والدهور لا يختل ذرة دلالة على أن صــانعه قيوم لا يغفل، ثم بعد هذا الحساب المستجد والحساب الأعظم الذي قدر لتكوير الشمس وانكدار القمر دلالة على أنه فاعل بالاختيار مع ما أفاد ذلك من تعاقب الملوين تارة بالاعتدال وتارة بالزيادة وأخرى بالنقص، وغير ذلك من الأمور في لطائف المقدور.

ولما كان ســـــيرهما على هذا المنهاج مع ما لهما فيه من الدؤب فيه بالتغير والتنقل طاعة منهما لمدبرهما ومبدعهما ومسيرهما، وكان خضوعهما- وهما النيران الأعظمان- دالاً على خضوع ما دونهما من الكواكب بطريق الأولى،

كان ذكرهما مغنياً عن ذكر ما عداهما بخصوصه، فأتبعهما حضور ما هو للأرض كالكواكب للسماء في الزينة والنفع والضر والصغر والكبر والكثرة والقلة من النبات مقدماً صغاره لعموم نفعه وعظيم وقعه بأن من أكثر الأقوات لجميع الحيوان والملابس من القطن والكتان وغير ذلك من عجيب الشأن، معبراً بما يصلح لبقية الكواكب فقال: {والنجم} أي وجميع الكواكب السماوية وكل نبت ارتفع من الأرض ولا ساق له من النبات الأرضية التي هي أصل قوام الإنسان وسائر الحيوان {والشجر} وكل ما له ساق ويتفكه به أو يقتات {يسجدان *} أي يخضعان وينقادان لما يراد منهما ويذلان للانتفاع بهما انقياد الساجد من العقلاء لما أمر به بجريهما لما سخرا له وطاعتهما لما قدرا فيه غير إباء على تجدد الأوقات من نمو في النبات ووقوف واخضرار وييس وإثمار وعطل، لا يقدر النجم أن يعلو إلى رتبة الشجرة ولا الشجرة أن يسفل إلى وهدة النجم إلى غير ذلك مما صرفنا فيه من سجود الظلال ودوران الجبال والمثال مما يدل على وحدانية الصانع وفعله بالاختيار، ونفي الطبائع، ومن تسيير في الكواكب وتدبير في المنافع في الحر والبرد اللذين جعل سبحانه بهما الاعتدال في النبات من الفواكهة والأقوات، وغير ذلك من وجود الانتفاعات.

ولما كان تغير ما تقدم من الشمس والقمر والنجم والشجر يدل دلالة واضحة على أنه سبحانه هو المؤثر فيه، وكانت السماء والأرض ثابتتين على حالة واحدة، فكان ربما أشكل أمرهما كما ضل فيهما خلق من أهل الوحدة أهل الجمود والاغترار والوقوف مع الشاهد وغيرهم، وكان إذا ثبت أنه تعالى

المؤثر فيهما، فلذلك قال مســـنداً التأثير فيهما إليه بعد أن أعرى ما قبلهما من مثله لما أغنى عنه من الدلالة بالتغير والســـير والتنقل عطفاً على ما تقديره: وهو الذي دبر ذلك: {والسماء رفعها} أي حساً بعد أن كانت ملتصقة بالأرض ففتقها منها وأعلاها عنها بما يشـهد لذلك من العقل عند كل من له تأمل في أن كل جسم ثقيل ما رفعه عما تحته إلا رافع، ولا رافع لهذه إلا الله فإنـه لا يقدر على التـأثير غيره، ولعظمها قدمها على الفعل تنبيهاً على التفكر فيما فيها من جلالة الصـنائع وأنواع البدائع، ومعنى بأنه جعلها منشـأ أحكامه ومصـــدر قضـــاياه ومتنزل أوامره ونواهيه ومســـكن ملائكته الذين يهبطون بالوحي على أنبيائه.

ولما كانت الســـماء مع علوها الدال على عزة موجدها ومدبرها دالة على عدلـه بـاعتدال جميع أحوالها من الحر والبرد والمطر والثلج والندى والطل وغير ذلك في أن كل فصـل منها معادل لضـده وأنها لا ينزلها سـبحانه إلا بقدر معلوم، و إلا لفســدت الأرض كلها، ودلنا على أنه شـــرع لنا مثل ذلك العدل لتقوم أحوالنا وتصـلـح أقوالنا وأفعالنا بما قامت به الســماوات والأرض فقال: {ووضع الميزان *} أي العدل الذي بدر به الخافقين من الموازنة وهي المعادلة لتنتظم أمورنا.

ولما ذكر أولاً القرآن الذي هو ميزان المعلومات، ودل على رحمانيته بأنواع من البيان، الذي رقي به الإنســـان فصـــار أهلاً للفهم، وذكره نعمة الميزان للمحسوسات، أقبل بالخطاب عليه لافتاً له عن أسلوب الغيبة تنشيطاً له إلى ارتقاء مراتب الكمال بحسـن الامتثال معللاً فقال: {أن} أي لأن {لا تطغوا}

أي لا تتجاوزا الحدود {في الميزان *} أي الأشـياء الموزونة من الموزونات المعروفة والعلم والعمل المقدر أحدهما بالآخر، وفي مساواة الظاهر والباطن والقول والفعل، فالميزان الثاني عام لميزان المعلومات وميزان المحسوسات.

ولما كان التقدير : فاقتدوا بأفعالي وتخلقوا بكل ما آمر به من أقوالي، عطف عليه قوله : {وأقيموا الوزن*} أي جميع الأفعال التي يقاس لها الأشـــياء {بالقسط}.

ولما كان المراد العدل العظيم، بينه بالتأكيد بعد الأمر بالنهي عن الضــد فقال: {ولا تخسروا الميزان *} أي توقعوا في شـيء من آلة العدل التي يقدر بها الأشياء من الذرع والوزن والعدل والكيل ونحو– نوعاً من أنواع الخسر– بما دل عليه تجريد الفعل فتخســروا ميزان أعمالكم وجزائكم يوم القيامة، وقد علم بتكرير الميزان ما أريد من التأكيد في الأمر به لما له من الضـــخامة سواء كان بمعنى واحد أو بمعان مختلفة.

ولما ذكر إنعامه الدال على اقتداره برفع الســماء، ذكر على ذلك الوجه مقابلها بعد أن وســط بينهما ما قامتا به من العدل تنبيهاً على شــدة العناية والاهتمام به فقال: {والأرض} أي ووضـع الأرض: ثم فسر ناصبها ليكون كالمذكور مرتين إشـــارة إلى عظيم تدبيره لشـــدة ما فيه من الحكم فقال : {وضـعها} أي دحاها وبسـطها على الماء {للأنام *} أي كل من فيه قابلية النوم أو قابلية الونيم وهو الصــوت بعد أن وضــع لهم الميزان الذي لا تقوم الأرض إلا به.

▲ تفسير الآيات رقم [11– 19]

{فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (11)

وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (12)

فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (13)

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14)

وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (15)

فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (16)

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (17)

فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (18) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19)}

ولما كان في سياق بيان الرحمة بمزيد الإنعام، وكان إقامة البينة أعظم نعمة، وكانت الفواكه ألذ ما يكون، وكانت برقتها وشدة لطافتها منافية للأرض في يبسها وكثافتها، فكان كونها فيها عجباً دالاً على عظيم قدرته، وكان ذكرها يدل على ما تقدمها من النعم من جميع الأقوات، بدأ بها ليصير ما يتقدمها كالمذكور مرتين، فقال مستأنفاً وصفها بما هو أعم: {فيها فاكهة} أي ضروب منها عظيمة جداً يدرك الإنسان بما له من البيان تباينها في الصور والألوان، والطعوم والمنافع– وغير ذلك من بديع الشأن.

ولما كان المراد بتنكيرها تعظيمها، نبه عليه بتعريف بنوع منها، ونوه به لأن فيه مع التفكه التقوت، وهو أكثر ثمار العرب المقصودين بهذا الذكر بالقصد الأول فقال : {والنخل} ودل على تمام القدرة بقوله : {ذات} أي صاحبة {الأكمام * } أي أوعية ثمرها، وهو الطلع قبل أن ينفتق بالثمر، وكل نبت

يخرج ما هو مكمم فهو ذو كمام، ولكنه مشـهور في النخل لشـرفه وشـهرته عندهم، قال البغوي: وكل ما سـتر شـيئاً فهو كم وكمة، ومنه كم القميص، وفيه تذكير بثمر الجنة الذي ينفتق عن نباهم، وذكر أصـل النخل دون ثمره للتنبيه عن كثرة منافعه من الليف والسـعف والجريد والجذوع وغيرها من المنافع التي الثمر منها.

ولما ذكر ما يقتات من الفواكه وهو في غاية الطول، أتبعه الأصـل في الاقتيات للناس والبهائم وهو بمكان من القصـر، فقال ذاكراً ثمرته لأنها المقصـودة بالذات: {والحب} أي من الحنطة وغيرها، ونبه على تمام القدرة بعد تنبيه بتمايز هذه المذكورات مع أن أصـل الكل الماء بقوله: {ذو العصـف} أي الورق والبقل الذي إذا زال عنه ثقل الحب كان مما تعصـفه الرياح التي تطيره، وهو التبن الذي هو من قوت البهائم.

ولما كان الريحان يطلق على كل نبت طيب الرائحة خصـوصـاً، وعلى كل نبت عموماً، أتبعه به ليعم ويخص جميع ما ذكر من سـائر النبات وغيره على وجه مذكر بنعمه بغذاء الأرواح بعد ما ذكر غذاء الأشـباح فقال: {والريحان *} ولما كان من كفر به سـبحانه بإنكاره أو إنكار شـيء من صـفاته، أو كذب بأحد من رسـله قد أنكر نعمه أو نعمة منها فلزمه بانكاره لتلك النعمة إنكار جميع النعم، لأن الرسـل داعية إلى الله بالتذكير بنعمه، وكان ما مضـى من هذه السـورة إلى هنا اثنتي عشـرة آية على عدد الكوفي والشامي، عدد فيها أصول نعمه سبحانه على وجه دل بغاية البيان على أن له كل كمال، وكان هذا العدد أول عدد زائد إشارة إلى تزايد النعم لأن كسوره

النصف والثلث الربع والسدس تزيد على أصله، وكان قد مضى ذكر الثقلين الجن والإنس في قوله {الأنام} قال تعالى إشـــارة إلى أنهم المقصـــودون بالوعظ، منكراً موبخاً مبكتاً لمن أنكر شـــيئاً من نعمه أو قال قولاً أو فعل فعلاً يلزم منه إنكار شـــيء منها مســـبباً عما مضـــى من تعداد هذه النعم المتزايدة التي لا يسـوغ إنكارها ولا إنكار شـيئ منها فيجب شـكرها: {فبأي آلاء} أي نعم عطايا {ربكما} أي المحسـن إليكما بما أسـدى من المزايا التي أســـداها إليكم على وجه الكبرياء والعظمة وهي دائمة لا تنقطع من غير حاجة إلى مكافأة أحد ولا غيرها- أيها الثقلان- المدبر لكما الذي لا مدبر ولا ســـيد لكما غيره، من آياته وصـــنائعه وحكمه وحكمته وعزته في خلقه واســـتســـلام الكل له وخضـــوعهما إليه، فإن كل هذه النعم الكبار آيات دالة عليه وصـــنائع محكمة وأحكام وحكم ظهرت بها عزته وبانت بها قدرته {تكذبان *} فمخاطبته بهذا الثقلين دليل على أن هذه الأشياء تعم على الجن كما أنها تعم على الإنس، وأن لهم من ذلك ما لهم، وذكره لهذه الآية بعد ذكر هذا العدد من الآيات إشـــارة إلى أن زيادة النعم إلى حد لا يحصـــى بحيث أن اسـتيفاء عددها لا تحيط به عقول المكلفين لئلا يظنوا أنه لا نعمة غير ما ذكر في هذه السـورة، والتعبير عنها بلفظ الآلاء من أجل أنها النعم المخصوصة بالملوك لما لها من اللمعان والصف المميز لها من غيرها ولما لرؤيتها من الخير والدعاء، وهي وإن كانت من الوا فيمكن أخذها من اللؤواء إلى أن الأصـــل الهمزة واللام، فإذا انضـــم إليهما لام أخرى أو ألف ازداد المعنى الذي كان ظهوراً لأن الألف غيب الهمزة وباطنها، واللام هي عين

ما كـان فلم يحصـــــل خروج عن ذلك المعنى، فإذا نظرت إلى الآل كـان المعنى أن تلك النعم الكبار الملوكية تظهر للعباد معرفته ســبحانه وأنه يؤل إليه كل شــيء أولاً من غير نزاع كما أنه كان بكل شــيء، وتكل عن نظرها الأبصــار النوافذ كما تكل عن رؤية الأشــخاص التي يرفعها الآل لأنها تدل عليه سبحانه.

.. نعم عظيمة وإن كانت نقماً لأنه لا نعمة تدل مثل ما دل عليه ســبحانه، وكرر هذه الآية في هذه الســورة من هنا بعد كل آية إلى آخرها لما تقدم في القمر من أن المنكر إذا تكرر إنكاره جداً بحيث أحرق الأكباد في المجاهرة بالعناد حسن سرد ما أنكره عليه،

وكلما ذكر بفرد منه قيل له: لم تتكره؟

سواء أقر به حال التقرير أو استمر على العناد، فالتكرار حينئذ يفيد التعريف بـأن إنكـاره تجـاوز الحد، ولتغـاير النعم وتعددهـا واختلافهـا حســـــن تكرير التوقيف عليها واحدة واحدة تنبيهاً على جلالتها، فإن كانت نعمة فالأمر فيها واضح، وإن كانت نقمة فالنعمة دفعها أو تأخير الإيقاع بها،

ولما تقدم من أن كل تذكير بما أفاده الله تعالى من النعم بالحواس الخمس مضـروبة في الجهات الستّ على أنك إذا اعتبرت نفس الآية وجدتها مشـيرة إلى ذلك، فإن كل كلمة منها– إلا الأخيرة في رســم من أثبت ألفها من كتبة المصـــاحف– خمســـة أحرف أن اعتبرت هجاء الأولين والثالثة خمســـة في الرسـم سـتة في الهجاء والنطق، فهي للحواس وللجهات لأن الكل من الرب، والكلمة الأخيرة ستة أحرف إن اعتبرت رسمها في المصاحف التي أسقطت

ألفها، فإن في إثباتها وحذفها اختلافاً بين أئمة المصــاحف، وهي إشــارة إلى الجهات التي يملك الإنسـان التصـرف فيها، أما الحواس فلا اختيار له فيها، وإن اعتبرت هجاءها بحسـب النطق كانت سـبعة أحرف إشـارة إلى أن النعم أكثر من أن تحصـــى لما تقدم من أســـرار عدد الســـبعة وإلى أن تكذيب المكلفين متكاثر جداً، فلذلك كان في غاية المناسبة أن تبسط هذه النعم على عدد ضـــرب الحواس الخمس في الجهات الســـت، وذلك في الحقيقة فائدة، فإنه من المألوف المعروف والجميل الموصـــــوف أن التكرير عند التكذيب يوجب التكرير عند التقرير، ويبلغ به النهاية في حســـن التأثير، وزاد العدد على مسـطح الخمس في السـت واحد إشــارة إلى أن نعم الواحدة لا انقطاع لها، ولذلك فصلت إلى ثمان ذكرت أولاً عقب النعم، فكانت على عدد السبع الذي هو أول عدد تام لأنه جمع الفرد والزوج وزوج الفرد وزوج الزوج، وزاد بواحد إشارة إلى أنه كلما انقضى دور من عدد تام جدير لنعم أخرى فهي لا تتناهى لأن موليها له القدرة الشاملة والعلم التام ورحمته سبقت غضبه،

وفي كونها ثمانية إشــارة إلى أنها ســبب إلى الجنة ذات الأبواب الثمانية إن شكرت،

وفي تعقيبها بســبع نارية إشـــارة إلى أنها ســببيتها للنار أقرب لكونها حفت بالشهوات،

وفي ذلك إشـارة إلى أن من اتقى ما توعد عليه بشـكر هذه النعم وقي أبواب النار السبعة،

ثم عقبها بثمانية ذكر فيها جنة المقربين إشـــارة إلى أن من عمل لما وعده كما أمره به الله نال أبواب الجنة الثمانية،

وثمانية أخرى عقب الجنة أصــحاب اليمين إشــارة إلى مثل ذلك والله أعلم،

وكان ترتيبها في غاية الحسن،

ذكرت النعم أولاً استعطافاً وترغيباً في الشكر

ثم الأهوال ترهيباً ودرأ للمفسدة بالعصيان والكفر

ثم النعم الباقية لجلب المصــالح، وبدأ بأشــرفها فذكر الجنة العليا لأن القلب إثر التخويف يكون أنشـط والهمم تكون أعلى والعزم يكون أشـد، فحينئذ هذه الآية الأولى من الإحدى والثلاثين مشــيرة إلى أن نعمة البصـــر من جهة الأمام، فكأنه قيل: أبنعمة البصر مما يواجهكم أو غيرها تكذبان.

ولما كان قد تقدم في إشارة الخطاب الامتنان بخلق الإنسان، ثم ذكر أصول النعم عليه على وجه بديع الشــأن، إلى أن ذكر غذاء روحه: الريحان، أتبع ذلك تفصـيلاً لما أجمل فقال: {خلق الإنسـان} أي أصـل هذا النوع الذي هو من جملة الأنام الذي خلقنا الريحان لهم والغالب عليه الأنس بنفســـه وبما ألفه.

ولما كان أغلب عناصــره التراب وإن كان من العناصـــر الأربعة، عبر عن إشارة به إلى مطابقة اسمه- بما فيه مما يقتضي الأنس الذي حاصله الثبات على حالة واحدة- لمســـماه الذي أغلبه التراب لنقله وثباته ما لم يحركه محرك، وعبر عن ذلك بما هو في غاية البعد عن قابلية البيان

فقال: {من صلصال} أي طين يابس له صوت إذا نقر عليه {كالفخار *} أي كالخزف المصنوع المشوي بالنار لأنه أخذه من التراب ثم خلطه بالماء حتى صار طيناً ثم تركه حتى صار حماء مسنوناً مبيناً،

ثم صوره كما يصور الإبريق وغيره من الأواني

ثم أيبسه حتى صار في غاية الصلابة فصار كالخزف الذي إذا نقر عليه صوت صوتاً يعلم منه هل فيه عيب أم لا، كما أن الآدمي بكلامه يعرف حاله وغاية أمره ومآله، فالمذكور هنا غاية تخليقه وهو أنسب بالرحمانية، وفي غيرها تارة مبدؤه وتارة إنشاؤه،

فالأرض أمه والماء أبوه ممزوجين بالهواء الحامل للجزء الذي هو من فيح جهنم،

فمن التراب جسده ونفسه،

ومن الماء روحه وعقله،

ومن النار غوايته وحدته،

ومن الهواء حركته وتقلبه في محامده ومذامه.

ولما كان الجان الذي شمله أيضاً اسم الأنام مخلوقاً من العناصر الأربعة، وأغلبها في جبلته النار، قال تعالى: {وخلق الجانّ} أي هذا النوع المستتر عن العيون بخلق أبيهم، وهو اسم جمع للجن. ولما كان الجن يطلق على الملائكة لاستتارهم، بين أنهم لم يرادوا به هنا

فقال: {من مارج} أي شيء صاف خالص مضطرب شديد الاضطراب جداً والاختلاط،

قال البغوي: وهو الصافي من لهب النار الذي لا دخان فيه، وقال القشيري، هو اللهب المختلط بسواد النار– انتهى.

ومرجت نارهم– أي اختلطت– ببرد الزمهرير . ولما كان المارج عاماً في النار وغيرها، بينه بقوله: {من نار *} هي أغلب من عناصر، فتعين المراد بذكر النار لأن الملائكة عليهم السلام من نور لا من نار، وليس عندهم مروج ولا اضطراب، بل هم في غاية الثبات على الطاعة فيما أمروا به، وقد عرف بهذا كل مضطرب قدره لئلا يتعدى طوره.

ولما كان خلق هذين القبيلين على هذين الوجهين اللذين هما في غاية التنافي مستوراً أحدهما عن الآخر مع منع كل من التسلط على الآخر إلا نادراً، إظهاراً لعظيم قدرته وباهر حكمته من أعظم النعم، قال مسبباً عنه: {فبأيِّ آلاء ربكما} أي النعم الملوكية الناشئة عن مبدعكما ومربيكما وسيدكما {تكذبان *} أي بنعمة البصر من جهة الوراء وغيرها من خلقكم على هذا النمط الغريب، وإيداعكم ما أودعكم من القوى، وجعلكم خلاصة مخلوقاته، ومن منع أحد قبيليكم عن الآخر، وتيسيره لكم الأرزاق والمنافع، وحملكم على الحنيفية السمحة، وقدرته على إعادتكم كما قدر على ابتدائكم.

ولما ذكر سبحانه هذين الجنسين اللذين أحدهما ظاهر والآخر مستتر، إرشاداً إلى التأمل فيما فيهما من الدلالة على كمال قدرته، فكانا محتاجين إلى ما هما فيه من المحل، وكان صلاحه مما دبر سبحانه فيه من منازل الشروق الذي هو سبب الأنوار والظهور، والغروب الذي هو منشأ الظلمة والخفاء، أتبعه قوله منبهاً على النظر في بديع صنعه الدال على توحيده:

{رب} أي هو خالق ومدير {المشـرقين} ومدبرهما على كيفية لا يقدر على شـيء منها غيره {ورب المغربين *} كذلك، وهذه المشـارق والمغارب هي ما للشـتاء من البروج، السـافلة الجنوبية التي هي سـبب الأمطار والثلوج، التي هي سبب الحياة والظهور، حال كون الشمس منحدرة في آفاق السماء، وما للصيف من البروج العالية في جهة الشمال التي هي سبب التهشم والأفول والشـمس مصـعدة في جو السـماء، وما بينهما من الربيع الذي هو للنمو، والخريف الذي هو للذبول، فهي آية الإيجاد والإعدام، فأول المشارق الصيف وقت استواء الليل والنهار عند حلول الشمس بأول البروج الشمالية صاعدة وهو الكبش، يعتدل الزمان حينئذ بقطعها الجنوبية واسـتقبالها الشـمالية، ثم آخر مشارقه إذا كانت الشمس في آخر الشمالية وأول الجنوبية عند حلولها برأس الميزان يعتدل الزمان ثانياً لاستقبالها البروج الجنوبية، ثم بحلولها بآخر القوس ورأس الجدي يكون الانتهاء في قصـر الأيام وطول الليالي لتوسـطها البروج الجنوبيـة، ثم بحلولهـا كـذلـك عنـد خروجهـا من برج التوأمين إلى السـرطان من بروج الشـمال، وهي آخر درجات الشـمس، يكون طول الأيام وقصر الليالي، فيختلف على هذين الفصلين الحر والبرد، وكون الشمس في أول برج الحمل هو بمثابة طلوعها من المشـــرق في أول كل نهار، وكونها في الاعتدال الثاني عند استقبالها البروج الجنوبية إذا حلت برأس الميزان هو بمثابة غروبها، ثم بكونها في الانتهائين في طول الأيام حين حلولها برج السـرطان هو بمنزلة اسـتوائها في الصـيف في كبد السـماء كما أن حلولها برأس الجدي عند الانتهاء في الشـــتاء في قصـــر الأيام وطول الليالي هو

بمثابة استوائها فيما يقابل استواءها في الشتاء في كبد السماء في النهار– ذكر ذلك ابن برجان وقال بعد ذلك: سخر سبحانه لعباده جهنم– أي بواسطة الشـــمس– وهي أعدى عدو لهم، فأخرج لهما بواســـطتها الزرع والزيتون والرمان والنخيل والأعناب والجنان المعروشـات وغير المعروشـات ومن كل الثمرات.

ولما كان في هذا من النعم ما لا يحصـــى، قال مسـبباً: {فبأيَّ آلاء ربكما} الذي دبر لكم هذا التدبير العظيم {تكذبان *} أي بنعمة البصــــر من جهة اليمين أو غيرها من تســـخير الشـــمس والقمر دائبين دائرين لإدارة الزمان وتجديد الأيام، وعدد الشـــهور والأعوام، واعتدال الهواء واختلاف الأحوال على الوجه الملائم لمصـالح الدنيا ومعايشـها على منهاج محفوظ وقانون لا يزيغ.

ولما كانت باحة البحر لجري المراكب كساحة السماء لسير الكواكب مع ما اقتضـى ذكره من تضـمن ذكر المشـارق والمغارب للشـتاء الحاصـل فيه من الأمطار ما لو جرى على القياس لأفاض البحار، فأغرقت البراري والقفار، وعلت على الأمصار وجميع الأقطار،

فقال: {مرج} أي أرســـل الرحمن {البحرين} أي الملح والعذب فجعلهما مضـطربين، من طبعهما الاضـطراب، حال كونهما {يلتقيان *} أي يتماسـان على ظهر الأرض بلا فصــــل بينهما في رؤية العين وفي باطنها، فجعل الحلو آية دالة على مياه الجنة، والملح آية دالة على بعض شراب أهل النار

لا يروي شـــــاربه ولا يغنيه، بل يحرق بطنه ويعييه، أو بحري فارس والروم هما ملتقيان في البحر المحيط لكونهما خليجين منه.

▲ تفسير الآيات رقم [20- 26]

{بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21)
يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (22)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (23)
وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآَتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (24)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (25)
كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26)}

ولما كان التقاء المايعين ولا سيما مع الاضطراب الدائم الاختلاط فيحيل ما لأحدهما أو لكل منهما من الصفات إلى الصفات الأخرى، فتشوفت النفس إلى المانع من مثل ذلك في البحرين،

قال مستأنفاً: {بينهما برزخ} أي حاجز عظيم من القدرة المجردة على الأول وتسيب الأرض على الثاني يمنعهما مع الالتقاء من الاختلاط،

وقال ابن برجان: البرزخ ما ليس هو بصريح هذا ولا بصريح هذا،

- فكذلك السهل والجبل بينهما برزخ يسمى الخيف،
- كذلك الليل والنهار بينهما برزخ يسمى غبشاً،

- كذلك بين الدنيا والآخرة برزخ ليس من هذا ولا من هذا ولا هو خارج عنهما،
- وكذلك الربيعان هما برزخان بين الشتاء والصيف بمنزلة غبش أول النهار وغبش آخره،
- جعل بين كل صـــــنفين من الموجودات برزخاً ليس من هذا ولا من هذا وهو منهما كالجماد والنبات والحيوان.

ولما كانت نتيجة ذلك كذلك قال : {لا يبغيان *} أي لا يطغيان في هلاك الناس كما طغيا فأهلكا من على الأرض أيام نوح عليه الصلاة والسلام، ولا يبغي واحد منهما على الآخر بالممارجة، ولا يتجاوزان ما حده لهما خالقهما ومدبرهما لا في الظاهر ولا في الباطن، فمتى حفرت على جنب المالح وجدت الماء العذب، وإن قربت الحفرة منه بل كلما قربت كان أحلى، فخلطهما الله سـبحانه في رأى العين وحجز بينهما في رأى عين القدرة، هذا وهما جمادان لا نطق لهما ولا إدراك، فكيف يبغي بعضكم على بعض أيها المدركون العقلاء.

ولما كان هذا أمراً باهراً دالاً دلالة ظاهرة على تمام قدرته لا ســـيما على الآخرة، قال مسبباً عنه: {فبأيِّ آلاء ربكما} أي الموجد لكما والمربي {تكذبان *} أي بنعمة الإبصار من جهة اليسار أو غيره، فهلا اعتبرتم بهذه الأصول من أنواع الموجودات فصـــدقتم بالآخرة لعلمكم بهذه البرازخ أن موتتكم هذه برزخ وفصل بين الدنيا والآخرة كالعشاء بين الليل والنهار، ولو استقر أتم ذلك في آيات السماوات والأرض وجدتموه شائعاً في جميع الأكوان.

ولما ذكر المنة بالبحر ذكر النعمة بما ينبت فيه كما فعل بالبر،
فقال معبراً بالمبني للمفعول لأن كلاً من وجوده فيه والتسليط على إخراجه منه خارق من غير نظر إلى مخرج معين، والنعمة نفس الخروج، ولذلك قرأ غير نافع والبصريين بالبناء للفاعل من الخروج: {يخرج منهما} أي بمخالطة العذب الملح من غير واسطة أو بواسطة السحاب، فصار ذلك كالذكر والأنثى،
قال الرازي: فيكون العذب العذب كاللقاح للملح،
وقال أبو حيان: قال الجمهور: إنما يخرج من الأجاج في المواضع التي يقع فيها الأنهار والمياه العذبة فناسب إسناد ذلك إليهما، وهذا مشهور عند الغواصين،
وقال ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة مولاه رضي الله عنه: تكون هذه الأشياء في البحر بنزول المطر لأن الصدف وغيرها تفتح أفواهها للمطر- انتهى.
فتكون الأصداف كالأرحام للنطف وماء البحر كالجسد الغاذي،
والدليل على أنه من ماء المطر كما قال الأستاذ حمزة الكرماني: إن من المشهور أن السنة إذا أجدبت هزلت الحيتان،
وقلت الأصداف والجواهر- انتهى.
ثم لا شك في أنهما وإن كانا بحرين فقد جمعها وصف واحد بكونهما ماء، فيسوغ إسناد الخروج إليهما كما يسند خروج الإنسان إلى جميع البلد، وإنما خرج من دار منها كما نسب الرسل إلى الجن والإنس بجمعهما في خطاب

واحد فقال: {رسـل منكم} [الأنعام: 130] وكذا {وجعل القمر فيهن نوراً} [نوح: 16] ومثله كثير {اللؤلؤ} وهو الدر الذي هو في غاية البياض والإشـراق والصـفاء {والمرجان *} أي القضـبان الحمر التي هي في غاية الحمرة، فسـبحان من غاير بينهما في اللون والمنافع والكون– نقل هذا القول ابن عطية عن ابن مسعود رضي الله عنه،

وقال: وهذا هو المشهور الاستعمال– انتهى،

وقال جمع كثير: إن اللؤلؤ كبار الدر والمرجان صغاره.

ولما كان ذلك من جليل النعم، سـببب عنه قوله: {فبأيِّ آلاء ربكما} أي المالك لكما الذي هو الملك الأعظم {تكذبان *} مع هذه الصـنائع العظمى، أبنعمة البصـر من جهة الفوق أو غير ذلك من خلق المنافع في البحار وتسليطكم عليها وإخراج الحلي الغريبة وغيرها.

ولما كان قد ذكر الخارج منه بماء السماء، ذكر السائر عليه بالهواء، وأشار بتقديم الجار إلى أن السائر في الفلك لا تصـريف له، وإن ظهر له تصـريف فهو لضعفه كلا تصريف،

فقال: {وله} أي لا لغيره، فلا تغتروا بالأسـباب الظاهرة فتقوا معها فتسـندوا شيئاً من ذلك إليها كما وقف أهل الاغترار بالشاهد، الذين أجمد أهل الأرض أذهاناً وأحقرهم شـأناً فقالوا بالاتحاد والوحدة {الجوار} أي السـفن الكبار والصـغار الفارغة والمشـحونة. ولما كانت حياة كل شـيء كونه على صـفة كماله، وكانت السفن تبنى من خشب مجمع وتوصل حتى تصير على هيئة تقبل المنافع الجمة، وكانت تربى بذلك الجمع كما تربى النبات والحيوان،

وكانت ترتفع على البحر ويرفع شـــراعها وتحدث في البحر بعد أن كانت مستترة بجبال الأمواج قال تعالى: {المنشآت} من نشأ- إذا وربا، والسحابة: ارتفعت، وأصــل الناشــئ كل ما حدث بالليل وبدأ، ومعنى قراءة حمزة وأبي بكر بكسر الشين أنها رافعة شراعها بسبب استمساكها عن الرسوب ومنشئة للسير، ومعنى قراءة الباقين أنه أنشأها الصانع وأرسلها ورفع شراعها.

ولما كانت مع كونها عالية على الماء منغمســـة فيه مع أنه ليس لها من نفســها إلا الرســوب والغوص قال: {في البحر} ولما كانت ترى على البعد كالجبال على وجه الماء قال: {كالأعلام *} أي كالجبال الطوال.

ولما كان ما فيها من المنافع بالتكســب من البحر بالصــيد وغيره والتوصـل إلى البلاد الشـــاســـعة للفوائد الهائلة، وكانت أعمالهم في البحر الإخلاص الذي يلزم منها الإخلاص في البر، لأنهما بالنســبة إلى إبداعه لهما وقدرته على التصــرف فيهما بكل ما يريده على حد ســواء، ســبب عن ذلك قوله: {فبأيِّ آلاء ربكما} أي النعمة العظمى {تكذبان *} أبنعمة البصـر من تحتكم أو غيرها من الأسفار، في محل الأخطار، والإنجاء عند الاضطراب والريح في محل الخسـار، والإرشـاد إلى ذلك بعد خلق مواد السفن وتعليم صـنعتها وتسخيرها والفلك لعدصي لوهما (؟) بمثابة جميع الكون، فخدامها كالملائكة في إقامة الملكوت وتحسين تماسكه بإذن ربهم، والمسافرون بها الذين أنشئت لأجلهم وزان المأمورين المكلفين المتهيئين الذين من أجلهم خلقت السـماوات والأرض ومـا بينهمـا فعبر بهم من غربتهم إلى قرارهم، ومن غيبتهم إلى حضـــورهم ومشـــاهدهم، ومدبرها أمرها في أعلاها يأمرهم بأمره فيعدونه

ويســمعون له، ثم قد يصــرف الاعتبار إلى أن تكون آية على قطع المؤمن أيام الدنيا فالدنيا هي البحر، والســفينة جســمه، وباطن العبد هو المحمول فيها، العقل صاحب سياستها، والقوى خدمتها، وأمر الله وتدبيره محيط بها، والإيمان أمنتها، والتوفيق ريحها، والذكر شراعها، والرسول سائقها بما جاء به من عند ربه، والعمل الطيب يصلح شأنها- ذكر ذلك ابن برجان.

ولما أخبر تعالى أنه خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من المنافع من الأعيان والمعاني، واســتوفى الأرض بقســميها براً وبحراً، مضــمناً ذلك العناصر الأربعة التي أسس عليها المركبات، وكان أعجب ما للمخلوق من الصــنائع ما في البحر، وكان راكبه في حكم العدم، دل على أنه المتفرد بجميع ذلك بهلاك الخلق، فقال مســتأنفاً معبراً بالاسمية الدالة على الثبات وب {من} للدلالة على التصريح تهويلاً بفتاء العاقل على فناء غير العاقل بطريق الأولى: {كل من عليها} أي الأرض بقسميها والسماء أيضاً {فان *} أي هالك ومعدوم بالفعل بعد أن كان هو وغيره من ســائر ما ســوى إليه، وليس لذل كله من ذاته إلا العدم، فهو فان بهذا الاعتبار، وإن كان موجوداً فوجوده بين عدمين أولهما أنه لم يكن، وثانيهما أنه يزول ثم هو فيما بين ذلك يتعاوره الإيجاد والإفناء في حين من أحواله وأعراضــه وقواه، وأسـباب الهلاك محيطة به حســاً ومعنى وهو لا يراها كما أنها محيطة بمن هو في السفينة من فوقه ومن تحته ومن جميع جهاته.

▲ تفسير الآيات رقم [27– 34]

{وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (28)
يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (30)
سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (31)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (32)
يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (33)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (34)}

ولما كان الوجه أشـرف ما في الوجود، وكان يعبر به عما أريد به صـاحب الوجه مع أنه لا يتصـور بقاء الوجه صـاحبه، فكان التعبير به عن حقيقة ذلك الشـيء أعظم وأدل على الكمال، وكان من المقرر عند أهل الشـرع أنه سـبحانه ليس كمثله شـيء فلا يتوهم أحد منهم من التعبير به نقصـاً قال: {ويبقى} أي بعد فناء الكل، بقاء مستمراً إلى ما لا نهاية له {وجه ربك} أي المربي لك بالرسـالة والترقية بهذا الوحي إلى ما لا يحد من المعارف، وكل عمل أريد به وجهه سـبحانه وتعالى خالصـاً. ولما ذكر مباينته للمخلوقات، وصـفه بالإحاطة الكاملة بالنزاهة والحمد، وقال واصـفاً الوجه لأن المراد به الذات الذي هو أشـرفها معبراً به ولأنها أبلغ من «صـاحب» وبما ينبه على التنزيه عما ربما توهمه من ذكر الوجه بليد جامد مع المحسـوسـات يقيس

الغائب– الذي لا يعتريه حاجة ولا يلم بجنابه الأقدس نقص– بالشاهد الذي كله نقص وحاجة

{ذو الجلال} أي العظمة التي لا ترام وهو صفة ذاته التي تقتضي إجلاله عن كل ما لا يليق به

{والإكرام *} أي الإحسان العام وهو صفة فعله.

ولما كان الموت نفسه فيه نعم لا تنكر، وكان موت ناس نعمة على ناس، مع ما ختم به الآية من وصفه بالإنعام قال: {فبأيّ آلاء ربكما} أي المربي لكما على هذا الوجه الذي مآله إلى العدم إلى أجل مسمى {تكذبان *} أي أيها الثقلان الإنس والجان، أبنعمة السمع من جهة الأمام أو غيرها من إيجاد الخلق ثم إعدامهم وتخليف بعضهم في أثر بعض وإيراث البعض ما في يد البعض– ونحو ذلك من أمور لا يدركها على جهتها إلا الله تعالى.

ولما كان أدل دليل على العدم الحاجة، وعلى دوام الوجود الغنى، قال دليلاً على ما قبله: {يسئله} أي على سبيل التجدد والاستمرار {من في السماوات} أي كلهم {والأرض} أي كلهم من ناطق أو صامت بلسان الحال أو القال أو بهما، ولما كان كأنه قيل : فماذا يفعل عند السؤال، وكان أقل الأوقات المحدودة المحسوسة {اليوم} عبر به عن أقل الزمان كما عبر به عن أخف الموزونات بالذرة فقال مجيباً لذلك: {كل يوم} أي وقت من الأوقات من يوم السبت وعلى اليهود لعنة الله وغضبه حيث قالوا في السبت ما هو مناف لقوله سبحانه وتعالى: {ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب} [ق: 38]

{ولا يؤده حفظهما هو العلي العظيم} [البقرة: 255]

{هو في شأن} أي من إحداث أعيان وتجديد معان أو إعدام ذلك، قال القشـــيري : في فنون أقســـام المخلوقات وما يجريه عليها من اختلفا الصفات– انتهى.

وهو شـــؤون يبديها لا شـــؤون يبتدئها تتعلق قدرته على وفق إرادته على ما تعلق به العلم في الأزل أنه يكون أو يعدم في أوقاته، فكل شــــيء قانت له خاضع لديه ساجد لعظمته شاهد لقدرته دالّ عليه {وإن من شيء إلا يسبح يحمده} وذلك التعبير– مع أنه من أجل النعم– أدل دليل على صـــفات الكمال له وصـــفات النقص للمتغيرات وأنها عدم في نفســـها ولأنها نعم قال: {فبأيّ آلاء ربكما} أي المربي لكما بهذا التدبير العظيم لكل ما يصـــلحكما {تكذبان *} أبنعمة السمع من جهة الخلف أو غيرها من تصريفه إياكم فيما خلقكم له هو أعلم به منكم من معايشـــكم وجميع تقلباتكم، وقد تكررت في هذه الآية المقررة على النعم من أولها إلى هنا ثماني مرات عقب النعم إشـــارة– والله أعلم– إلى أن نعمة الله سـبحانه وتعالى لا تحصـــى لأنها تزيد على السبعة التي هي العدد التام الواحد هو مبدأ لدور جديد من العدد إشارة إلى أنه كلما انقضـــى منها دور ابتدأ دور آخر، ووجه آخر وهو أن الأخيرة صـرح فيها ب {من في السماوات والأرض} والسبع التي قبلها يختص بأهل الأرض إشـــارة إلى أن أمهات النعم ســـبع كالســـماوات والأرض والكواكب السيارة ونحو ذلك.

ولما انقضـــــى عد النعم العظام على وجه هو في غاية الإمكان من البيان، وكان تغير سائر الممكنات من النبات والجماد والملائكة والسماوات والأرض وما حوتا مما عدا الثقلين على نظام واحد لا تفاوت فيه،

وأما الثقلان فأحوالهما لأجل تنازع العقل والشهوات لا تكاد تنضبط، بل تغير حال الواحد منهم في اللحظة الواحد إلى ألوان كثيرة متضـــادة لما فيهم من المكر وأحوال المغالبة والبغي والاستئثار باللهو بالأمر والنهي، وكان أكثرهم يموت بناره من غير أخذ ثأره، واقتضت الحكمة ولا بد أنه لا بد لهم من يوم يجتمعون فيه يكون بينهما فيه الفصـل على ميزان العدل، خصـهما بالذكر فقال آتياً في النهاية بالوعيد لأنه ليس للعصاة بعد الإنعام والبيان إلا التهديد الشـديد للرجوع إلى طاعة الملك الديان، والالتفات في قراءة الجماعة بالنون إلى التكلم أشـد تهديداً من قراءة حمزة والكسـائي بالتحتية على نسـق ما مضـى: {سنفرغ} أي بوعد قريب لا خلف فيه من جميع الشؤون التي ذكرت {لكم} أي نعمل علم من يفرغ للشـيء فلا يكون له شـغل سـواه بفراغ جنودنا من الملائكة وغيرهم مما أمرناهم به مما سبقت به كلمتنا ومضت به حكمتنا من الآجال والأرزاق وغير ذلك فينتهي كله ولا يكون لهم حينئذ عمل إلا جمعكم ليقضي بينكم: {أيّه الثقلان *} بالنصفة، والثقل هو ما يكون به قوام صـاحبه، فكأنهما سـميا بذلك تمثيلاً لهما بذلك إشـارة إلى أنهما المقصـودان بالذات من الخلائق،

وقال الرازي في اللوامع: وصـفاً بذلك يعظم ذلك شـأنهما، كأن ما عداهما لا وزن له بالإضافة إليهما– انتهى.

وهذا كما قال صـــلى الله عليه وســـلم «إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي»

وقال جعفر الصادق: سميا بذلك لأنهما مثقلان بالذنوب.

ولما كان هذا من أجلّ النعم التي يدور عليها العباد، ويصـــلح بها البلاد، وتقوم بها السـماوات والأرض، لأن مطلق التهديد يحصـل به انزجار النفس عما لها من الانتشـار فيما يضـر ولا ينفع، فكيف بالتهديد بيوم الفصل قال: {فبأيّ آلاء ربكما} أي المحســن إليكما بهذا الصــنع المحكم {تكذبان *} أبنعمة الســـمع عن اليمين أو بغيرها من إثابة أمل طاعته وعقوبة أمل معصـــيته، وســـمى ابن برجان هذا الإخبار الذي لا نون جمع فيه خطاب القبض يخبر فيه عن موجوداته وما هو خالقه، قال: وذلك إخبار منه عن محض الوحدانية، وما قبله من {ســنفرغ} ونحوه وما فيه نون الجمع إخبار عن وصف ملكوته وجنوده وهو خطاب البسط.

ولما كان التهديد بالفراغ ربما أوهم أنهم الآن معجوز عنهم أو عن بعض أمرهم، بين بخطاب القبض المظهر لمحض الواحدانية أنهم في القبضــة، لا فعل لأحد منهم بدليل أنهم لا يصـــلون إلى جميع مرادهم مما هو في مقدورهم، ولكنه ستر ذلك بالأسـباب التي يوجد التقيد بها إسـناد الأمور إلى مباشرتها فقال بياناً للمراد بالثقلين:

{يا معشر} أي يا جماعة فيهم الأهلية والعشرة والتصادق

{الجن} قدمهم لمزيد قوتهم ونفوذهم في المسام وقدرتهم على الخفاء والتشكل في الصور بما ظن أنهم لا يعجزهم شيء

{والإنس} أي الخواص والمستأنسين والمؤانسين المبني أمرهم على الإقامة والاجتماع.

ولما بان بهذه التسمية المراد بالتثنية، جمع دلالة على كثرتهم فقال: {إن استطعتم} أي إن وجدت لكم طاعة الكون في

{أن تنفذوا} أي تسلكوا بأجسامكم وتمضوا من غير مانع يمنعكم

{من أقطار} أي نواحي {السماوات والأرض} التي يتخللها القطر لسهولة انفتاحها لشي تريدونه من هرب من الله من إيقاع الجزاء بينكم، أو عصيان عليه في قبول أحكامه وجري مراداته وأقضيته عليكم من الموت وغيره أو غير ذلك

{فانفذوا} وهذا يدل على أن كل واحدة منها محيطة بالأخرى لأن النفوذ لا يكون حقيقة إلا مع الخرق.

ولما كان نفوذهم في حد ذاته ممكناً ولكنه منعهم من ذلك بأنه لم يخلق في أحد منهم قوته ولا سيما وقد منعهم منه يوم القيامة بأمور منها إحداق أهل السماوات السبع بهم صفاً بعد صف وسرادق النار قد أحاط بالكافرين ولا منفذ لأحد إلا على الصراط ولا يجوزه إلا كل ضامر يخف، أشار إليه بقوله مستأنفاً:

{لا تنفذون} أي من شيء من ذلك

{إلا بسلطان} إلا بتسليط عظيم منه سبحانه بأمر قاهر وقدرة بالغة وأنى لكم بالقدرة على ذلك،

قال البغوي : وفي الخبر : يحاط على الخلق بالملائكة وبلســان من نار ثم ينادون: يا معشر الجن الآية.

انتهى، وهذا حكاية ما يكون من ذلك يوم القيامة لا أنه خاص بهم.

ولما كان هذا نظرهم فيما بينهم وبين بقية الحيوانات بما أعطاهم من القوى الحسية والمعنوية وما نصب لهم، المصاعد العقلية والمعارض النقلية التي ينفذون بها إلى غاية الكائنات ويتخللون بما يؤديهم إليه علمها إلى أعلى المخلوقات، ثم نظرهم فيما بين الحيوانات وبين النباتات ثم بينها وبين الجمادات دالاًّ دلالة واضحة على أنه سبحانه وتعالى يعطي من يشاء من يشـــاء، فلو أراد قواهم على النفوذ منها، ولو قواهم على ذلك لكان من أجل النعم، وأنه سبحانه قادر على ما يريد منهم، فلو شاء أهلكهم ولكنه يؤخرهم إلى آجالهم حلماً منه وعفواً منه عنهم، ســـبب عن ذلك قوله : {فبأيّ آلاء ربكما} أي المحسن إليكما المربي لكما بما تعرفون به قدرته على كل ما يريد {تكذبان *} أبنعمة السمع من جهة اليسار أو غيرها من جعلكم سواء في أنكم لا تقدرون على مخالفة مراده سواء ابتدأ بخلقكم أو اليوم المشـهود وقد أشـهدكم قبل على أنفسكم وعهد إليكم أو بتكشيط السماوات وقد شاهدتم تكشيط السحاب بعد بسطه أو بالجزاء وقد رأيتم الجزاء العاجل وشاهدتم ما أصاب الأمم الماضية.

▲ تفسير الآيات رقم [35- 45]

{يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (35)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (36)
فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (38)
فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (39)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (40)
يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (41)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (42)
هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (43)
يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آَنٍ (44)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (45)}

ولما سلب عنهم القدرة على النفوذ المذكور تنبيهاً على سلب جميع القدرة عنهم وعلى أن ما يقدرون عليه إنما هو بتقديره لهم نعمة منه عليهم، ولما كان منهم من بلغ الغاية في قسوة القلب وجمود الفكر فهو يحيل العجز عن بعض الأمور إلى أنه لم يجر بذلك عادة، لا إلى أنه سبحانه المانع من ذلك، فعمهم شيء من ذلك سطوته فقال {يرسل عليكما} أي أيها المعاندون، قال ابن عباس رضي الله عنهما : حين تخرجون من القبور بسوقكم إلى المحشر {شواظ} أي لهب عظيم منتشر مع التضايق محيط بكم من كل جانب له صوت شديد كهيئته ذي الخلق الضيق الشديد النفس.

ولما كان الشــــواظ يطلق على اللهب الذي لا دخان فيه وعلى دخان النار وحرها وعلى غير ذلك، بينه بقوله: {من نار ونحاس} أي دخان هو في غاية الفظاعة فيه شرر متطاير وقطر مذاب، قال ابن جرير: والعرب تسمي الدخان نحاســاً بضــم النون وكســرها، وأجمع القراء على ضــمها- انتهى. وجرها أبو عمرو وابن كثير عطفاً على {نار} ورفعه الباقون عطفاً على {شواظ}.

ولما كان ذلك ممكناً عقلاً وعادة، وكانوا عارفين بأنهم لو وقعوا في مثل ذلك لم يتخلصـوا منه بوجه، سـبب عنه قوله: {فلا تنتصـران *} قال ابن برجان: هذا مصــداق قول رســول الله صــلى الله عليه وســلم «يخرج عنق من نار فيقول بكل جبار عنيد فيلتقطهم من بين الجمع لقط الحمام حب الســمســم، ويغشــي المجرمين دخان جهنم من بين المؤمنين ولا يضــرهم، وآية الشــواظ وعنق النار هنالك صواعق ما هنا وبروقه والنار المعهودة».

ولما كان التهديد بهذا لطفاً بهم فهو نعمة عليهم والعفو عن المعالجة بإرسالة لذلك، سبب عنه قوله: {فبأيِّ آلاء ربكما} أي المربي لكما بدفع البلايا وجلب المنافع {تكذبان *} أبنعمة الســـمع من فوق أو غيرها، ألم يكن لكم فيما شـــهدتموه في الدنيا من دلائل ذلك وآياته ما يوجب لكم الإيمان. ولما كان هذا مما لم تجر عادة بعمومه وإن استطردت بجريانه منه في أشياء منه في أماكن متفرقة كأشـخاص كثيرة، بين لهم وقته بقوله: {فإذا} أي فيتسـبب عن هذا الإرسـال إنه إذا {انشـقت السـماء} من هوله وعظمته فكانت أبواباً لنزول

الملائكة وغيرهم، وغير ذلك من آيات الله {فكانت} لما يصـــيبها من الحر {وردة} أي حمراء مشرقة من شدة لهيبه،
وقال البغوي : كلون الفرس الورد وهو الأبيض الذي يضـــرب إلى حمرة وصفرة.
{كالدهان} أي ذائبة صـــافية كالشـــيء الذي يدهن به أو كالأديم الأحمر والمكان الزلق، وآية ذلك في الدنيا الشـــفقان عند الطلوع وعند الغروب، وجواب {إذا} محذوف تقديره: علمتم ذلك علماً شـــهودياً أو فما أعظم الهول حينئذ ونحو ذا أن يكون الجواب شـــيئاً دلت عليه الآيات الآتية نحو : فلا يسأل أحد إذ ذاك عن ذنبه، وحذفه أفخم ليذهب الوهم فيه كل مذهب.
ولما كان حفظ السماء عن مثل ذلك بتأخير إرسال هذا وغيره من الأسباب وجعلها محل الروح والحياة والرزق من أعظم الفواضـــل قال مســـبباً عنه: {فبأيِّ آلاء ربكما} أي المربي لكما هذا التدبير المتقن {تكذبان *} أبنعمة السمع من تحت أو غيرها وليس شـيء بما أخبرتكم به من أحوال الآخرة إلا قد أقمت لكم في الدنيا ما تهتدون به إلى العلم بكونه . ولما كان يوم القيامة ذا ألوان كثيرة ومواقف مهولة طويلة شهيرة تكون في كل منها شؤون عظيمة وأمور كبيرة، ذكر بعض ما سببه هذا الوقت من التعريف بالعاصي والطائع بآيات جعلها الله سبباً في علمها فقال: {فيومئذ} أي فسبب عن يوم انشقت السماء لأنه {لا يسئل} سؤال تعرف واستعلام بل سؤال تقريع وتوبيخ وكلام، وذلك أنه لا يقال له : هل فعلت كذا ؟ بل يقال له : لم فعلت كذا، على أنه ذلك اليوم طويل، وهو ذو ألوان تارة يســـأل فيه وتارة لا يســـأل، والأمر في

غاية الشـدة، وكل لون من تلك الألوان يسـمى يوماً، فقد مضـى في الفاتحة أن اليوم عبارة عن وقت يمتد إلى انقضـــاء أمر مقدر فيه ظاهر من ليل أو نهار أو غيرهما لقوله تعالى {إلى ربك يومئذ المساق} [القيامة: 30] أي يوم إذا بلغت الروح التراقي وهو لا يختص بليل ولا نهار، وبناه للمفعول تعظيماً للأمر بالإشارة إلى أن شأن المعترف بالذنب لا يكون خاصاً بعهد دون عهد بل يعرفه كل من أراد علمه، وأضمر قبل الذكر لما هو مقدم في الرتبة ليفهم الاختصـاص فوجد الضـمير لأجل اللفظ فقال: {عن ذنبه} أي خاصـة وقد سئل المحسن عن حسنته سؤال تشريف له وتنديم لمن دونه.

ولما كان الإنس أعظم مقصـود بهذا، ولهذا كان الرسـول صـلى الله عليه وسلم منهم، وكان التعريف بالشـاهد المألوف أعظم في التعريف، وكان علم أحوال الشـيء الظاهر أسـهل، قدمهم فقال: {إنس} ولما كان لا يلزم من علم أحوال الظاهر علم أحوال الخفي، بين أن الكل عليه سبحانه هين فقال: {ولا جان *} ولما كان هذا التمييز من أجل النعم لئلا يؤدي الالتباس إلى ترويع بعض المطيعين عاملاً أو نكاية بالسـؤال عنه قال: {فبأيِّ آلاء ربكما} أي الذي ربى كلاًّ منكم بما لا مطمع في إنكاره ولا خفاء فيه {تكذبان *} أبنعمة الشم من الأمام أم من غيرها.

ولما كان الكلام عاماً عرف انه خاص بتعرف المجرم من غيره دون التعزير بالذنب أو غيره من الأحوال فقال معللاً لعدم السـؤال: {يعرف} أي لكل أحد {المجرمون} أي العريقون في هذا الوصـف {بسـيماهم} أي العلامات التي صـــور الله ذنوبهم فيها فجعلها ظاهرة بعد أن كانت باطنة، وظاهرة الدلالة

عليهم كما يعرف أن الليل إذا جاء لا يخفى على أحد أصـــلاً وكذلك النهار ونحوهما لغير الأعمى، وتلك السيما- والله أعلم- زرقة العيون وسواد الوجوه والعمى والصـــمم والمشـــي على الوجوه ونحو ذلك، وكما يعرف المحســـنون بسيماهم من بياض الوجوه وإشراقها وتبسمها، والغرة والتحجيل ونحو ذلك، وسبب عن هذه المعرفة قوله مشيراً بالبناء للمفعول إلى سهولة الأخذ من أي آخذ كان {فيؤخذ بالنواصـــي} أي منهم وهي مقدمات الرؤوس {والأقدام *} بعد أن يجمع بينهما كما أنهم كانوا هم يجمعون ما أمر الله به أن يفرق، ويفرقون ما أمر الله به أن يجمع، فيسحبون بها سحباً من كل ساحب أقامه الله لذلك لا يقدرون على الامتناع بوجه فيلقون في النار.

ولما كان ذلك نعمة لا يقام بشكرها لكل من يسمعها لأن كل أحد ينتفي من الإجرام ويود للمجرمين عظيم الانتقام، سـبب عنه قوله: {فبأيِّ آلاء ربكما} أي النعم الكبار من الذي دبر مصالحكم بعد أن أوجدكم {تكذبان *} أبنعمة الشـــم من الوراء أم بغيرها مما يجب أن يفعل من الجزاء في الآخرة لكل شخص بما كان يعمل في الدنيا أو غير ذلك من الفضل.

ولما كان أخذهم على هذا الوجه مؤذناً بأنه يصـير إلى خزي عظيم، صـرح به في قوله، بانياً على ما هدى إليه السـياق من نحو: أخذاً مقولاً فيه عند وصـــولهم إلى محل النكال على الحال التي ذكرت من الأخذ بنواصـــيهم وأقدامهم، {هذه} أي الحفرة العظيمة الكريهة المنظر «القريبة منكم» الملازمة للقرب لكم {جهنم التي يكذب} أي ماضـياً وحالاً ومآلاً اسـتهانة {ولو ردوا} [الأنعام: 28]- إلى الدنيا- بعد إدخالهم إياها- {لعادوا لما نهوا عنه}

[الأنعام: 28] {بها المجرمون *} أي العريقون في الإجرام، وهو قطع ما من حقه أن يوصل وهو ما أمر الله به، وخص هذا الاسم إشارة إلى أنها تلقاهم بالتجهم والعبوســة والكلاحة والفظاظة كما كانوا يفعلون مع الصــالحين عند الإجرام المذكور، قال ابن برجان: وقرأ عبد الله «هذه جهنم التي كنتم بها تكذبان فتصـليانها لا تموتان فيها ولا تحييان» ثم اسـتأنف ما يفعل بهم فيها فقال: {يطوفون بينها} أي بين دركة النار التي تتجهمهم {وبين حميم} أي ماء حار هو من شدة حرارته ذو دخان.

ولما كان هذا الاســم يطلق على البارد، بين أمره فقال: {آن} أي بالغ حره إلى غاية ليس وراءها غاية، قال الرازي في اللوامع: وقيل: حاضــــر، وبه ســـمي الحال بالآن لأنه الحاضـــر الموجود، فإن الماضـــي لا تدارك له والمســـتقبل أمل وليس لنا إلا الآن، ثم «الآن» ليس بثابت طرفة عين، لأن الآن هوالجزء المشـــترك بين زمانين، فهم دائماً يترددون بين عذابي النار المذيبة للظاهر والماء المقطع بحره للباطن لا يزال حاضـراً لهم تردد الطائف الذي لا أول لتردده ولا آخر.

ولما كانت عذاب المجرم– القاطع لما من شأنه أن يكون متصلاً– من أكبر النعم وأسرها لكل أحد حتى لمن سواه من المجرمين، سبب قوله: {فبأي آلاء ربكما} أي المحســـن إليكما أيها الثقلان بإهلاك المجرم في الدارين وإنجاء المســـلم مما أهلك به المجرم لطفاً بالمهددين ليرتدعوا وينزجروا عما يكون سـبب إهلاكهم هم ومن والاهم {تكذبان *} أبنعمة الشـم من اليمين أمن من غيرها مما أراكم من آياته، وظاهر عليكم من بيناته، في السماوات والأرض،

وما أراكم من مطالع الدنيا من الشـمس التي هي آية النـهار والقمر الذي هو آية الزمهرير، وغير ذلك من آياته المحكمة المرئية المســـموعة، وقد كررت هذه الآية عقب ذكر النار وأهوالها ســبع مرات تنبيهاً على اســتدفاع أبوابها السبعة كما مضى- والله المستعان.

▲ تفسير الآيات رقم [46- 57]

{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (47)
ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (48)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (49)
فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (50)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (51)
فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (52)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (53)
مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (54)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (55)
فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (56)
فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (57)}

ولما كان قد عرف ما للمجرم المجترئ على العظائم، وقدمه لما اقتضاه مقام التكبر من الترهيب وجعله سبعاً إشارة إلى أبواب النار السبعة، عطف عليه

ما للخائف الذي أداه خوفه إلى الطاعة وجعله ثمانية على عدد أبواب الجنة الثمانية فقال: {ولمن} أي ولكل من، ووحد الضمير مراعاة للفظ {من} إشارة إلى قلة الخائفين {خاف} أي من الثقلين.

ولما كان ذكر الخوف من الزمان المضروب للحساب والتدبير والمكان المعد لهما أبلغ من ذكر الخوف من الملك المحاسب المدبر، والخوف مع ذكر وصف الإكرام أبلغ من ذكر الخوف عند ذكر أوصاف الجلال، قال دالاًّ بذلك على أن المذكور رأس الخائفين: {مقام ربه} أي مكان قيامه الذي يقيمه وغيره فيه المحسن إليه للحكم وزمانه الذي ضربه له وقيامه عليه وعلى غيره بالتدبير، فهو رقيب عليه وعليهم، فكيف إذا ذكر مقام المنتقم الجبار المتكبر فترك لهذا ما يغضبه وفعل ما يرضيه {جنَّتان} عن يمين وشمال، واحدة للعلم والعقل وأخرى للعمل، ويمكن أن يراد بالتثنية المبالغة إفهاماً لأنها جنان متكررة ومتكثرة مثل {ألقيا في جهنم كل كفَّارٍ عنيد} [ق: 24] ونحو ذلك.

ولما كانت هذه نعمة جامعة، سبب عنها قوله: {فبأيِّ آلاء ربكما} أي نعم المربي لكما والمحسن إليكم بإحسانه الكبار التي لا يقدر غيره على شيء منها {تكذبان *} أبنعمة الشم من اليسار المنبعثة من القلب أو غيرها من تربة جنان الدنيا بنفس جهنم من حر الشمس وحرورها، فجعل من ذلك جميع الفواكه والزروع إلى غير ذلك من المرافق التي طبخها بها {وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون} [يوسف: 105] وغير ذلك من نعمه التي لا تحصى.

ولما كانت البســـاتين لا يكمل مدحها إلا بكثرة الأنواع والألوان والفروع المشتبكة والأغصان، قال واصفاً لهما: {ذواتا} أي صاحبتا برد عين الكلمة فإن أصـــلها «ذوو» {أفنان *} أي جميع فن يتنوع فيه الثمار، وفنن وهو الغصـن المستقيم طولاً الذي تكون به الزينة بالورق والثمر وكمال الانتفاع، قال عطاء: في كل غصـن فنون من الفاكهة؛ ولهذا سبب عنه قوله: {فبأيّ آلاء ربكما} أي المربي لكما والمحسـن إليكما {تكذبان *} أبنعمة الشـم من جهة الفوق أو غيرها مما ذكره لكم من وصـــف الجنة الذي جعل لكم من أمثاله ما تعتبرون به.

ولما كانت الجنان لا تقوم إلا بالأنهار قال: {فيهما عينان} أي في كل واحدة عين {تجريان *} أي في كل مكان شـــاء صـــاحبهما وإن علا مكانه كما تصـعد المياه في الأشـجار في كل غصـن منها، وإن زاد علوها جرى على عيني دموعه الجاريتين من خشية الله وذلك على مثال جنان الدنيا، والشمس صـاعدة في البروج الشـمالية من تكامل المياه وتفجرها عيوناً في أيام الربيع والصيف لقرب العهد بالأمطار {فبأي آلاء ربكما} أي المالك لكما والمحسن إليكما {تكذبان *} أبنعمة الشم من جهة التحت أو غيرها مما ذكره وجعل له في الدنيا أمثالاً كثيراً.

ولما كان بالمياه حياة النبات وزكاؤه، قال ذاكراً أفضـل النبات: {فيهما} أي هاتين الجنتين العاليتين، ودل على جميع كل ما يعلم وزيادة بقوله: {من كل فاكهة} أي تعلمونها أو لا تعلمونها {زوجان} أي صـــنفان يكمل أحدهما بالآخر كما لا يدرك كنه أحد الزوجين بســـبب العمل بما يرضـــى والآخر

بالانتهاء عما يسـخط {فبأيِّ آلاء ربكما} أي النعم الكبار التي رباها الموجد لكما المحسـن إليكما {تكذبان *} أبنعمة اللمس من الأمام أو غيرها من أنه أوجد لكما جنان الدنيا بواسطة حر النار التي هي أعدى عدوكما إشـارة إلى أنه قادر على أنه يوجد برضوانه ومحبته من موضع غضبه وانتقامه إكراماً، فقد جعل ما في الدنيا مثالاً لما ذكر في الآخرة، فبأي شـــيء من ذلك تكذبان، لا يكمل الإيمان حتى يصـــدق المؤمن أنه تعالى قادر على أن يجعل من جهنم جنة بأن يجعل من موضع سخطه رحمة ويشاء ذلك ويعتبر ذلك بما أرانا من نموذجه.

ولما كان التفكه لا يكمل حســـنه إلا مع التنعم من طيب الفرش وغيره، قال مخبراً عن الذين يخافون مقام ربهم من قبيلي الإنس والجن مراعياً معنى {من} بعد مراعاة لفظها تحقيقاً للواقع: {متكئين} أي لهم ما ذكر في حال الاتكاء وهو التمكين بهيئة المتربع أو غيره من الكون على جنب، قال في القاموس: توكأ عليه: تحمل، واعتمد كأوكأ، والتكأة كهمزة: العصـــا، وما يتوكأ عليه، وضـربه فأتكأه: ألقاه على هيئة المتكئ أو على جانبه الأيسـر، وقال ابن القطاع: وضربته حتى أتكأته أي سقط على جانبه، وهو يدل على تمام التنعم بصـحة الجسـم وفراغ البال {على فرش} وعظمها بقوله مخاطباً للمكلفين بما تحتمل عقولهم وإلا فليس في الجنة ما يشـــبهه على الحقيقة شـيء من الدنيا {بطائنها} أي فما ظنك بظواهرها ووجوهها {من إسـتبرق} وهو ثخين الديباج يوجد فيه من حســـنه بريق كأنه من شـــدة لمعانه يطلب إيجاده حتى كأنه نور مجرد.

ولما كان المتكئ قد يشق عليه القيام لتناول ما يريد قال: {وجنا الجنتين} أي مجنيهما اسـم بمعنى المفعول– كأنه عبر به ليفهم سـهولة نفس المصـدر الذي هو الاجتناء {دان *} أي قريب من كل من يريده من متكئ وغيره لا يخرج إلى صعود شجرة، وموجود من كل حين يراد غير مقطوع ولا ممنوع.
ولما كان ربما وجد مثل من ذلك شـاهد له من أغصـان تتعطف بجملتها فتقرب وأخرى تكون قريبة من ساق الشجرة فيسهل تناولها قال: {فبأيِّ آلاء ربكما} أي النعم الكبار الملوكية التي أوجدها لكما هذا المربي لكما الذي يقدر على كل ما يريد {تكذبان *} أبنعمة اللمس من جهة الوراء أم غيرها من قدرته على عطف الأغصان وتقريب الثمار.
ولما كان ما ذكر لا تتم نعمته إلا بالنسـوان الحسـان، قال دالاً على الكثرة بعد سـياق الامتنان بالجمع الذي هو أولى من التثنية بالدلالة على أن في كل بسـتان جماعة من النسـوان، لما بهن من عظيم اللذة وفرط الأنس: {فيهن} أي الجنان التي علم مما مضـى أن لكل فرد من الخائفين منها جنتين. ولما كان سـياق الامتنان معرفاً بأن جمع القلة أريد به الكثرة مع ما ذكر من محسـناته في سـورة «ص» قال معبراً به: {قاصـرات الطرف} أي نسـاء مخدرات هن في وجوب السـتر بحيث يظن من ذكرهن بغير الوصـف من غير تصـريح، قد قصـرن طرفهن وهممهن على أزواجهن ولهن من الجمال ما قصـرن به أزواجهن عن الالتفات إلى غيرهن لفتور الطرف وسحره وشدة أخذه للقلوب جزاء لهم على قصر هممهم في الدنيا على ربهم.

ولما كان الاختصاص بالشيء لا سيما المرأة من أعظم الملذذات قال: {لم يطمثهن} أي يجامعهن ويتسلط عليهن في هذا الخلق الذي أنشئن فيه نوع من أنواع السلطة سواء من إنسيات أو جنيات أو غير ذلك، يقال: طمثت المرأة كضرب وفرح: حاضت، وطمثها الرجل: افتضها وأيضاً جامعها، والبعير عقلته، فكأنه قيل: هن أبكار لم يخالط موضع الطمث منهن {إنس} ولما كان المراد تعميم الزمان أسقط الجارّ فقال: {قبلهم} أي المتكئين {ولا جان * } وقد جمع هذا كل من يمكن منه جماع من ظاهر وباطن، وفيه دليل على أن الجني يغشى الإنسي كما نقل عن الزجاج {فبأيِّ آلاء ربكما} أي النعم الجسام من المربي الكامل العلم الشامل القدرة القيوم {تكذبان * } أبنعمة اللمس من جهة اليمنى أم غيرها مما جعله الله لكم مثالاً لهذا من الأبكار الحسان، أو غير ذلك من أنواع الإحسان.

▲ تفسير الآيات رقم [58- 65]

{كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (58)

فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (59)

هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (60)

فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (61)

وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (62)

فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (63)

مُدْهَامَّتَانِ (64) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (65)}

ولما دل ما تقدم من وصف المستمتع بهن بالعزة والنفاسة، زاده على وجه أفاد أنه يكون بهن غاية ما يكون من سكون النفس وقوة القلب وشدة البدن واعتدال الدم وغير ذلك من خواص ما شبههن به فقال: {كأنهن الياقوت} الذي هو في صفاته بحيث يشف عن سلكه وهو جوهر معروف، قال في القاموس: أجوده الأحمر الرماني نافع للوسواس والخفقان وضعف القلب شرباً ولجمود الدم تعليقاً: {والمرجان *} في بياضه، وصغار الدر أنصع بياضاً، قال أبو عبد الله القزاز: والمرجان صغار اللؤلؤ، وهذا الذي يخرج من نبات البحر أحمر معروف– انتهى. وقد يستفاد من ذلك أن ألوانهن البياض والحمرة على نوع من الإشراب هو في غاية الإعجاب من الشفوف والصفاء، وهو مع ذلك ثابت لا يعتريه تغير ليطابق الحديث الذي فيه «يرى مخ ساقها من وراء سبعين حلة» وقال أبو حيان: شبههن بهما فيما يحسن التشبيه به فالياقوت في املاسه وشفوفه والمرجان في املاسه وجمال منظره {فبأيِّ آلاء ربكما} أي النعم الغريبة البالغة في الحسن من المالك الملك المربي ببدائع التربية {تكذبان *} أبنعمة اللمس من جهة اليسرى أم غيرها مما جعله مثالاً لما ذكر من وصفهن من تشبيه شيء بشيئين لبلوغ الأمر في الحسن إلى حد لا يساويه فيه شيء واحد ليشبه به، فهو كما قيل: بيضاء في دعج صفراء في نعج كأنها فضة قد شابها ذهب، وقد جعل سبحانه الأشياء الشفافة مثلاً لذلك وأنت ترى بعض الأجسام يكاد يرى فيه الوجه بل في سواد العين أعظم غرة حيث يرى فيه الوجه فإن السواد منشأ الظلام.

ولما كان ألذ ما أفاده الإنسان من النعم ما كان تسبب منه، قال ساراً لهم بذلك مع ما فيه من لذة المدح لا سيما والمادح الملك الأعلى، معظماً له بسياق الاستفهام المفيد للإثبات بعد النفي المفيد للاختصاص على وجه الإنكار الشديد على من يتوهم غير ذلك: {هل جزاء الإحسان} أي في العمل الكائن من الإنس أو الجن أو غيرهم {إلا الإحسان *} أي في الثواب، فهذا من المواضع التي أعيدت فيها المعرفة والمعنى مختلف، روى البغوي بسنده عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «هل تدرون ما قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة» وذلك جزاء إحسان العبد في العمل في مقابلة إحسان ربه إليه بالتربية {فبأيِّ آلاء ربكما} أي النعم العظيمة الحسن من السيد الكريم العظيم الرحيم الجامع لأوصاف الكمال {تكذبان *} أبنعمة اللمس من جهة الفوق أم غيرها مما جعله الله سبحانه مثالاً في أن من أحسن قوبل بمثل إحسانه، وهذه الآية ختام ثمان آيات حاثة على العمل الموصل إلى الثمانية الأبواب الكائنة لجنة المقربين– والله الهادي.

ولما كان قد علم مما ذكر أول هذا الكلام من الخوف مع ذكر وصف الإكرام، وآخره من ذكر الإحسان أن هذا الفريق محسنون، وكان من المعلوم أن العاملين طبقات، وأن كل طبقة أجرها على مقدار أعمالها، اقتضى الحال بيان ما أعد لمن دونهم: {ومن دونهما} أي من أدنى مكان، رتبة مما تحت جنتي هؤلاء المحسنين المقربين {جنتان *} أي لكل واحد لمن دون هؤلاء المحسنين من الخائفين وهم أصحاب اليمين، قال ابن عباس رضي

الله عنهما: دونهما في الدرج، وجعل ابن برجان الأربع موزعة بين الكل، وأن تخصيص هذه العدة إشارة إلى أنها تكون جامعة لما في فصول الدنيا الأربعة: الشتاء والربيع والصيف والخريف، وفسر بذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم «جنتان من ذهب أوتيتهما وما فيهما وجنتان من فضة أوتيتهما وما فيهما» ثم جوز أن يكون المراد بالدون الأدنى إلى الإنسان، وهو البرزخ، فتكون هاتان لأهل البرزخ كما كان {وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك} من عذاب القبر {فبأيِّ آلاء ربكما} أي المحسن بنعمه السابغة إلى الأعلى ومن دونه {تكذبان *} أبنعمة اللمس من جهة التحت أم غيرها مما جعله الله في الدنيا مثالاً لهذا من أن بعض البساتين أفضل من بعض إلى غير ذلك من أنواع التفضيل.

ولما كان ما في هاتين من الماء دون ما في الباقيتين، فكان ربما ظن أن ماءهما لا يقوم بأعلى كفايتهما قال: {مدهامتان *} أي خضراوان خضرة تضرب من شدة الري إلى السواد، من الدهمة، قال الأصبهاني: الغالب على هاتين الجنتين النبات والرياحين المنبسطة على وجه الأرض وفي الأوليين الأشجار والفواكه {فبأيِّ آلاء ربكما} أي نعم المحسن إلى العالي منكما ومن دونه بسعة رحمته {تكذبان *} أبنعمة الذوق من جهة الأمام أم غيرها مما جعله مثالاً لذلك من جنان الدنيا الكثيرة الري وغيره.

▲ تفسير الآيات رقم [66- 78]

{فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (66)

فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (67)

فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (68)

فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (69)

فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (70)

فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (71)

حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (72)

فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (73)

لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (74)

فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (75)

مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (76)

فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (77)

تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (78)}

ولما كان ذكر ما يدل على ريهما، حققه بقوله: {فيهما} أي في كل جنة لكل شخص منهم {عينان نضاختان *} أي تفوران بشدة توجب لهما رشاش الماء بحيث لا ينقطع ذلك، ولم يذكر جريهما فكأنهما بحيث يرويان جنتهما ولا يبلغان الجري، والنضخ دون الجري وفوق النضخ، قال الأصبهاني: وأصل النضخ بالمعجمة- انتهى.

وكأنهما لمن تغرغر عيناه بالدمع فتمتلئان من غير جري،

وقال ابن برجان ما معناه إن حر (؟) عدم جريهما لكونهما على مثال جنة خريف ما ههنا وشـــتاء به لبعد عهدهما بنزول الماء وســكنا في أعماق الأرض لينعكس بالنبع والفوران صـــاعداً مع أن الجنة لا مطر فيها {فبأيِّ آلاء ربكما} أي نعم المربي البليغ الحكمة في التربية {تكذبان *}

أبنعمة الذوق من جهة ما وراء اللســـان أم غيرها مما جعله مثالاً لذلك من الأعين التي تفور ولا تجري والأنابيب المصـنوعة للفوران لأنها بحيث تروق ناظرها لصـعودها بقوة نبعها وترشـيشـها من النعم الكبار . ولما ذكر الري والسـبب فيه، ذكر ما ينشـأ عنه فقال: {فيهما فاكهة} أي من كل الفاكهة، وخص أشـرفها وأكثرها وجداناً في الخريف والشـتاء كما في جنان الدنيا التي جعلت مثالاً لهاتين الجنتين

فقال: {ونخل ورمان *} فإن كلاًّ منهما فاكهة وإدام، فلذا خص تشـــريفاً وتنبيهاً على ما فيهما من التفكه وأولاهما أعم نفعاً وأعجب خلقاً فلذا قدم {فبأيِّ آلاء ربكما} أي نعم المحسن إليكما أيها الثقلان بجليل التربية {تكذبان *} أبنعمة الذوق من اليمين أم من غيرها مما جعل مثالاً لهذا من جنان الدنيا وغير ذلك.

ولما كان ما ذكر لا تكمل لذته إلا بالأنيس، وكان قد ورد أنه يكون في بعض ثمار الجنة وحمل أشجارها نساء وولدان كما أن أمثال ذلك في بطن مياه الدنيا {وجعلنا من الماء كل شيء حي} [الأنبياء: 30] قال جامعاً على نحو ما مضى من الإشارة إلى أن الجنتين لكل واحد من أفراد هذا الصنف: {فيهن} أي الجنان الأربع أو الجنان التي خصت للنساء، وجوز ابن برجان

أن يكون الضـمير للفاكهة والنخل والرمان فإنه يتكون منها نسـاء وولدان في داخل قشر الرمان ونحوه {خيرات} أي نساء بليغ ما فيهن من الخير، أصله خير مثقلاً لأن «خير» الذي للتفضـيل لا يجمع جمع سـلامة، ولعله خفف لاتصافهن بالخفة في وجودهن وجميع شأنهن، ولكون هاتين الجنتين دون ما قبلهما {حسـان *} أي في غاية الجمال خلقاً وخلقاً {فبأيِّ آلاء ربكما} أي نعم الكامل الإحسـان إليكما {تكذبان *} أبنعمة الذوق من جهة اليسـار أمن من غيرها ممن جعله مثالاً لتكوين النســـاء والولدان والملابس والحلي من ثمار الأشـــجار والزروع التي من المياه التي بها العيش، ففيها التوليد وغير ذلك مما تظهره الفكرة لأهل العبرة لأن كل ما في الجنة ينشأ عن الكلمة من الرزق كما ينشأ عنه سبحانه في هذه الدار على تسبيب.

.. والحكمة، ثم بينهن بقوله: {حور} أي ذوات أعين شـديدة سـواد السـواد وشـديدة بياض البياض، وقال ابن جرير: بيض جمع {مقصـورات} أي على أزواجهن ومحبوســات، صـــيانة عن التبذل، فهو كناية عن عظمتهن {في الخيام *} التي هي من الدر المجوف الشفاف جزاء لمن قصر نفسه عن... الله فكف جوارحه عن الزلات، وصـــان قلبه عن الغفلات {فبأيِّ آلاء ربكما} أي الجليل الإحســـان إليكما {تكذبان *} أبنعمة الذوق من جهة الفوق أم بغيرها مما جعله مثالاً لهذا في الدنيا، فإنه كما خلقنا من تراب ثم طورنا في أطوار الخلقة بحســب حكمة الأســباب كذلك خلق أولئك من أرض الجنة ورياضها وفواكهها عن كلمة السكان من غير أسباب.

ولما كانت أنفس الأخيار ذوي الهمم العالية الكبار في الالتفات إلى الأبكار قال: {لم يطمثهن} أي يتسلط عليهن نوع سلطة {إنس} وعم الزمان بحذف الجار فقال: {قبلهم} أي انتفى الطمث المذكور في جميع الزمان الكائن قبل طمث أصحاب هذه الجنان لهن، فلو وجد في لحظة من لحظات القبل لما صدق النفي {ولا جان *} فهن في غاية الاختصاص كل بما عنده {فبأيِّ} أي فتسبب عن هذا التعدد لمثل هذه النعم العظيمة أنا نقول تعجيباً ممن يكذب توبيخاً له وتنبيهاً على ما له تعالى من النعم التي تفوت الحصر: بأيِّ {آلاء ربكما} أي النعم الجليلة من المدبر لكما بما له من القدرة التامة والعظمة الباهرة العامة {تكذبان *} أبنعمة الذوق من تحت أم بغيرها مما جعله مثالاً لهذا من الأبكار المخدرات، وجميع ما ذكر من النعم العامة الظاهرة في كل حالة في الدنيا والآخرة، وختم بالتقرير أربع وعشرون ثمان منها أول السورة من النعم الدنياوية، وست عشرة جنان، وجعلها على هذا العدد، إشارة إلى تعظيمها بتكثيرها فإنه عدد تام لأنه جامع لأكثر الكسور، ولذا قسم الدرهم وغيره أربعة وعشرون قيراطاً. ولما تم التقرير بالنعم المحيطة بالجهات الست والحواس الخمس على الوجه الأكمل من درء المفاسد وجلب المصالح كما تقدمت الإشارة إليه بمدكر، بقوله: {فهل من مدكر} [القمر: 17] في القمر، بالحسن فيها إلى الحواس الخمس وبتكرارها، وتكرار {كيف كان عذابي ونذر} [القمر: 18] ستاً إلى الجهات الست من جهة الوراء والخلف، أوترها بنعمة أخرى واحدة إشارة إلى أن السبب في هذا اعتقاد وحدانية الواحد تعالى اعتقاداً أدى الخضوع لأمر مرسل كلما جاء من عنده

تعالى فلذلك كانت نعمة لا تنقطع أصـــلاً، بل كلما تم دور منها ابتدأ دور آخر جديد، وهكذا على وجه لا انقطاع له أبداً كما أن الواحد الذي هو أصل العدد لا انتهاء له أصـــلاً، وهذه النعمة الدالة على الراحة الدائمة التي هي المقصودة بالذات على وجه لا يرى أغرب منه ولا أشرف، فقال تعالى مبيناً حال المحسـنين ومن دونهم مشـركاً لهم في الراحة على ما لا عين رأت ولا أذن سـمعت ولا خطر على قلب بشـر: {متكئين} أي لهم ذلك في حال الاتكاء ديدناً لأنهم لا شـغل لهم بوجه إلا التمتع {على رفرف} أي ثياب ناعمة وفرش رقيقة النســج من الديباج لينة ووســائد عظيمة ورياض باهرة وبسط لها أطراف فاضلة، ورفرف السحاب هدبه أي ذيله المتدلي.

ولما كان الأخضر أحسن الألوان وأبهجها قال: {خضر وعبقري} أي متاع كامل من البسـط وغيرها هو في كماله وغرابته كأنه من عمل الجن لنسـبته إلى بلدهم، قال في القاموس: عبقر موضــع كثير الجن، وقرية بناؤها في غاية الحسن، والعبقري الكامل من كل شيء، والسيد والذي ليس فوقه شيء، وقال الرازي: هو الطنافس المخملة، قال ابن جرير: الطنافس الثخان، وقال القشـيري: العبقري عند العرب كل ثوب موشـى، وقال الخليل: كل جليل نفيس فاخر من الرجال وغيرهم، ومنه قول النبي صـلى الله عليه وسـلم في عمر رضـي الله عنه: «فلم أر عبقرياً من الناس يفري فريه» وقال قطرب: ليس هو من المنسوب بل هو بمزلة كرسي وبختي.

ولما كان المراد به الجنس، دل على كثرته بالجمع مع التعبير بالمفرد إشـارة إلى وحدة تكامله بالحسـن فقال: {حسـان *} أي هي في غاية من كمال

الصنعة وحسن المنظر لا توصف {فبأيِّ آلاء ربكما} أي النعم العظيمة من المحســن الواحد الذي لا محســن غيره ولا إحســان إلا منه ولا تعد نعمه ولا تحصي ثناء عليه {تكذبان *} وبهذه الآية تمت النعم الثمان المختصة بجنة أصحاب اليمين إشارة إلى العمل لأبوابها الثمانية. والله الموفق.

ولما دل ما ذكر في هذه الســورة من النعم على إحاطة مبدعها بأوصــاف الكمال، ودل بالإشارة بالنعمة الأخيرة على أن نعمه لا نهاية لها لأنه مع أن له الكمال كله متعال عن شائبة نقص، فكانت ترجمة ذلك قوله في ختام نعم الآخرة مناظرة لما تقدم من ختام نعم الدنيا معبراً هناك بالبقاء لما ذكر قبله، من الفناء، وهذا بما من البركة إشـارة إلى أن نعمه لا انقضـاء لها: {تبارك} قال ابن برجان: تفاعل من البركة، ولا يكاد يذكره جل ذكره إلا عند أمر معجب- انتهى، ومعناه ثبت ثباتاً لا يســع العقول جمع وصــفه لكونه على صــيغه المفاعلة المفيدة لبذل الجهد إذا كانت ممن تمكن منازعته، وذلك مع اليمن والبركة والإحســـان. ولما كان تعظيم الاســـم أقعد وأبلغ في تعظيم المســمى قال: {اسـم ربك} أي المحســن إليك بإنزال هذا القرآن الذي جبلك على متابعته فصــرت مظهراً له وصــار خلقاً لك فصــار إحســانه إليك فوق الوصــف، ولذلك قال واصــفاً للرب في قراءة الجمهور: {ذي الجلال} أي العظمة الباهرة فهو المنتقم من الأعداء {والإكرام *} أي الإحســان الذي لا يمكن الإحاطة به فهو المتصــف بالجمال الأقدس المقتضــي لفيض الرحمة على جميع الأولياء، وقراءة ابن عامر {ذو} صـــفة للاســـم، وكذا هو في مصاحف أهل الشام، والوصفان الأخيران من شبه الاحتباك حذف من الأول

متعلق الصـــفة وهو النقمة للأعداء، ومن الثاني أثر الإكرام وهو الرحمة للأولياء، فإثبات الصفة أولاً يدل على حذف ضدها ثانياً، وإثبات الفعل ثانياً يدل على حذف ضده أولاً، وقال الرازي في اللوامع: كأنه يريد بالاسم الذي افتتح به السورة وقد انعطف آخر السورة على أولها على وجه أعم، فيشمل الإكرام بتعليم القرآن وغيره والانتقام بإدخال النيران وغيرها- الله سـبحانه وتعالى هو الموفق للصواب.